نقول : الأصل كما جاء في الآيةَ أن الذبح في مكة وفي الحرم ، إلا أنهم لما استقذروا الذَّبْح في الحرم بسبب ما يُخلفه من قاذورات ودماء وخلافه نتيجة هذه العملية ، فرُؤى أن يجعلوا الذبح بعيداً عن الحرم حتى يظل نظيفاً ، وهذا لا يمنع الأصل ، وهو أنْ يكون الذَّبْح في الحرم ، كما جاء في آية أخرى : ﴿هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ..(٩٥)﴾ [المائدة]

وفي الحديث الشريف : « مكَّةُ كلُّها مَنْحرٌ »[1] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤)﴾

المنسك : هو العبادة ، كما جاء في قول الله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام : ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢)﴾ [الأنعام]

ومعنى ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا .. (٣٤)﴾ [الحج] لأنّ الشعائر والمناسك والعبادات ليس من الضروري أنْ تتفق عند جميع الأمم ، بل لكل أمة ما يناسبها ، ويناسب ظَرْفها الزمني والبيئي .

لذلك ، فإن الرسل لا تأتي لتُغير القواعد والأسس التي يقوم عليها

(١) عن جابر بن عبد الله أنه قال : نحر رسول الله ﷺ فحلق وجلس للناس ، فما سُئل عن شيء إلا قال : لا حرج لا حرج ، حتى جاءه رجل فقال : حلقت قبل أن أنحر . قال : لا حرج . ثم جاء آخر فقال : يا رسول الله حلقت قبل أن أرمي قال : لا حرج قال رسول الله ﷺ : « عرفة كلها موقف ، والمزدلفة كلها موقف ، ومنى كلها منحر ، وكل فجاج مكة طريق ومنحر » أخرجه أحمد في مسنده (٣/٣٢٦) والدارمي في سننه (٢/٥٧) .

الدين ؛ لأن هذه القواعد وهذه الأسس ثابتة في كل رسالات السماء ، لا تتبدل ولا تتغير بتغيُّر الرسل .

يقول تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ .. (١٣) ﴾ [الشورى]

هذا في الأصول العَقَدية الثابتة ، أما في الفرعيات فنرى ما يصلح المجتمع ، وما يناسبه من طاعات وعبادات .

ثم يُبيِّن الحق سبحانه الحكمة من هذه المناسك : ﴿ لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ .. (٣٤) ﴾ [الحج] أي : يذكروا الله في كل شيء ، ويشكروه على كل نعمة ينالونها من بهيمة الأنعام .

لذلك نذكر الله عند الذبح نقول : بسم الله ، الله أكبر ، لماذا ؟ لأن الذبح إزهاق روح خلقها الله ، وما كان لك أنْ تزهقها بإرادتك ، فمعنى « بسم الله والله أكبر » هنا أنني لا أزهق روحها من عندي ، بل لأن الله أمرني وأباحها لي ، فالله أكبر في هذا الموقف من إرادتك ، ومن عواطفك .

ونرى البعض يأنف من مسألة الذَّبْح هذه ، يقول : كيف تذبحون هذا الحيوان أو هذه الدجاجة ؟ يدَّعي الرحمة والشفقة على هذه الحيوانات ، لكنه ليس أرحم بها من خالقها ، وما ذبحناها إلا لأن الله أحلَّها ، وما أكلناها إلا بسم الله ، بدليل أن ما حرمه الله علينا لا نقرب منه أبداً .

وهل أنا أكرم القطة عن الأرنب ، فأذبح الأرنب وأترك القطة ؟ وهل أحترم الكلب عن الخروف ؟ أبداً ، المسألة مسألة تشريع وأمر ثبت عن الله ، فَعلَيَّ أنْ أُعظِّمه وأُطيعه .

وقوله تعالى : ﴿ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ .. (٣٤) ﴾ [الحج] الرزق يعنى : أنه تعالى أوجدها لك ، وملكك إياها ، وذلَّلها لك فاستأنستْها وسخَّرها لك فانتفعتَ بها ، ولولا تسخيره ما انقادتْ لك بقُوتك وقدرتك .

ثم يقول سبحانه : ﴿ فَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ .. (٣٤) ﴾ [الحج] يعنى : إن اختلفت الشرائع من أمة لأمة فإيَّاك أنْ تظنَّ أن هذا من إله ، وهذا من إله آخر ، إنما هو إله واحد يشرِّع لكل أمة ما يناسبها وما يصلحها ؛ لأن التشريعات السماوية تأتى علاجاً لآفات اجتماعية .

والأصل الأصيل هو إيمان بإله واحد فاعل قادر مختار ، يُبلِّغ عنه رسول بمعجزة تُبيِّن صدقه فى التبليغ عن الله . هذا أصل كل الديانات السماوية ، كذلك قواعد الدين وأساسياته واحدة مُتفق عليها ، فالسرقة والزنا وشهادة الزور .. إلخ كلها مُحرَّمة فى كل الأديان .

لكن ، هناك أمور تناسب أمة ، ولا تناسب أخرى ، والمشرِّع للجميع إله واحد ، الناس جميعاً من لَدُن آدم وإلى أنْ تقومَ الساعة عياله ، وهم عنده سواء ، لذلك يختار لكلٍّ ما يُصلحه .

ألاَ ترى ربَّ الأسرة كيف يُنظِّم حياة أولاده - ولله المثَل الأعلى - فيقول : هذا يفعل كذا ، وهذا يفعل كذا ، وإذا جاء الطعام قال : هذا يأكل كذا وكذا لأنه مريض مثلاً ، لا يناسبه طعام الآخرين ، ويأمر الأم أنْ تُعدَّ لهذا المريض ما يناسبه من الطعام . ذلك لأنه راعٍ للجميع مسئول عن الجميع ، وعليه أنْ يراعىَ مصلحة كل واحد منهم على حدَة[1] .

---

(١) وذلك مصداقاً لحديث رسول الله ﷺ : « ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالأمير الذى على الناس راعٍ وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راعٍ على أهل بيته ، وهو مسئول عنهم ، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهى مسئولة عنهم ، والعبد راعٍ على مال سيده ، وهو مسئول عنه ، ألا فكلكم راعٍ ، وكلكم مسئول عن رعيته » أخرجه مسلم فى صحيحه (١٨٢٩) ، والبخارى فى صحيحه (٨٩٣ ، ٢٤٠٩) من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما .

إذن : اختلاف التشريعات فى هذه المسائل الجزئية بين الأمم لا يعنى تعدُّد الآلهة كلاً وحاشا لله ، بل هو إله واحد ، يعطى عباده كُلاً على حسب حاجته ، كى يتوازنَ المجتمع ويستقيم حاله .

نذكر أنه كان عند طبيب الوحدة الصحية دورقان ، فى كل منهما مزيج معين ، وكان يعطى كل المرضى مع اختلاف أمراضهم من هذين النوعين فقط ؛ لذلك كانت عديمة الجدوى ، أما الآن فالطبيب الماهر لا بُدَّ أن يُجرى على مريضه الفحوص والتحاليل اللازمة ليقف على مرضه بالتحديد ، ثم يصف العلاج المناسب لهذه الحالة بمقادير دقيقة تُبرىء المرض ولا تضرُّ المريض من ناحية أخرى .. كذلك الأمر فى اختلاف الشرائع السماوية بين الأمم .

وما دام أن إلهكم إله واحد ، وما دُمْتم عنده سواء ، وليس منكم مَنْ هو ابنٌ الله ، ولا بينه وبين الله قرابة . إذن : ﴿فَلَهُ أَسْلِمُوا .. (٣٤)﴾ [الحج] يعنى : أسلموا كل أموركم لله ، فإنْ أمر فعظِّموا أمره ، وخذوه على الرُّحْب والسَّعَة ، فإنْ ترك مجالاً لاختيارك فاصنع ما تشاء . ولا تنسَ أن الله تعالى أعطاك فرصة للترقِّى الإيمانى ، وللترقِّى الإحسانى ، وفتح لك مجال الإحسان إنْ أردتَ .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤)﴾ [الحج] المخبت : فى المعنى العام : يعنى الإنسان الخاشع الخاضع المتواضع لكل أوامر الله ، والمعنى الدقيق للمخبت : هو الذى إذا ظُلم لا ينتصر لنفسه ، عملاً بقول الله تعالى : ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣)﴾ [الشورى] هكذا بلام التوكيد .

أما فى وصية لقمان لولده : ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧)﴾ [لقمان] بدون توكيد ، لماذا ؟

قالوا : لأن لقمان يوصى ولده بالصبر على ما أصابه ، والمصائب قسمان : مصيبة تصيب الإنسان ، وله فيها غريم هو الذى أوقع به المصيبة ، وهذه يصاحبها غضب وسعار للانتقام ، ومصيبة تصيب الإنسان وليس له غريم كالمرض مثلاً ، فإنْ كان له غريم فالصبر أشدُّ ، لذلك احتاج إلى التوكيد ، على خلاف المصيبة التى ليس أمامك فيها غريم ، فهى من الله فالصبر عليها أهونُ من الأولى .

ومع ذلك جعل الحق - سبحانه وتعالى - للنفس البشرية منافذ تُنفِّس من خلالها عن نفسها ، حتى لا يختمر بداخلها الغضب ، فيتحول إلى حقد وضغينة ، قد تؤدى إلى أكثر مما وقع بك ؛ لذلك أباح لك الرد لكن حبَّبك فى مَرَاقٍ أخرى ، هى أجدى لك ، فقال تبارك وتعالى : ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) ﴾ [آل عمران]

وهذه مراحل ثلاث ، تختار منها بحَسْب فَهْمك عن الله وقُرْبك منه :

الأولى : ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ .. (١٣٤) ﴾ [آل عمران] يعنى : تكظم غيظك فى نفسك ، دون أنْ تترجم هذا الغيظ إلى عمل نزوعىّ فتنتقم ، فالغيظ - إذن - مسألة وجدانية فى القلب ، وموجود فى مواجيد نفسه ، وهذه مرحلة .

الثانية : ﴿ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ .. (١٣٤) ﴾ [آل عمران] يعنى : لا ينتقم ، ولا حتى يجعل للغَيْظ مكاناً فى نفسه ، فيُصفِّيها من مشاعر الحَنَق والغيظ راضياً .

الثالثة : ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) ﴾ [آل عمران] وهى أعلى المراتب ، وهى ألاَّ تكتفى بالعفو ، بل وتُحسِن إلى مَنْ أساء إليك ،

والبعض يقول : هذا ضد طباع البشر ، نعم هى ضد طباع البشر العاديين ، لكن الذين يعرفون الجزاء ، ويعرفون أنهم بذلك سيكونون فى حضانة ربهم يهون عليهم هذا العمل ، بل ويُحبون الإحسان إلى مَنْ أساء .

لذلك ؛ فالحسن البصرى ـ رضوان الله عليه ـ لما بلغه أنَّ شخصاً نال منه فى أحد المجالس ـ وكان الوقت بواكير الرُّطَب ـ أرسل خادمه إليه بطبق من الرطب ، وقال له : بلغنى أنك أهديْتَ إلىَّ حسناتك بالأمس[1] .

ومعلوم أن الحسنات أغلى وأثمن بكثير من طبق الرُّطَب . ومن هنا يقولون : ما أعجب من الذى يُسىء إلى مَنْ أساء إليه ، لأنه أعطاه حسناته ، وهى خلاصة عمله ، فكيف يُسىء إليه ؟!

وكأن الحق سبحانه يريد أنْ يُحدث توازناً فى المجتمع ، ويقضى على دواعى الحقد وأسباب الضغائن فى النفس البشرية ، فحين تُحسن إلى مَنْ يُسىء إليك فإنك تجتثّ جذور الكُرْه والحقْد من نفسه ، كما قال سبحانه وتعالى :

﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) ﴾ [فصلت] فقد أخرجتَ خَصْمك من قالب الخصومة ، إلى قالب الولاية والمحبة .

فالمخْبِت المتواضع لله ، أما غير المخبت فتراه متكبراً (يتفرعن) على مَنْ حوله ، ويرى نفسه أعظم من الجميع ، ولو أنه استحضر

(١) ذكره أبو حامد الغزالى (٣/١٥٤) أن رجلاً قال للحسن : إن فلاناً قد اغتابك فبعث إليه رطباً على طبق ، وقال : قد بلغنى أنك أهديت إلىَّ من حسناتك ، فأردت أن أكافئك عليها فاعذرنى فإنى لا أقدر أن أكافئك على التمام .

جلال ربه لخشع له ، وتواضع وانكسر لخَلْقه ، فالتكبر دليل غفلة عن عظمة الله ، كأنه لم يشهد خالقه .

إذن : تستطيع أن تقول أن الإخبات على نوعين : إخبات لله بالخضوع والخشوع والتعظيم لأوامره ، وإخبات لخَلْق الله ، بحيث لا ينتصر لظلمه ولا يظلم ، إنما يتسامح ويعفو ؛ لأنه يعلم جيداً أنه إذا ظُلِم من مخلوق تعصَّب له الخالق .

ولك أن تنظر إلى أولادك إذا ظلم أحدهم الآخر فإلى مَنْ تنحاز ، ومع مَنْ تتعاطف ؟ لا شك أنك ستميل إلى المظلوم ، وتحنو عليه ، وتريد أنْ تُعوِّضه عَمَّا لحقه من الظلم ، حتى إن الظالم ليندم على ظُلْمه ؛ لأنه ميَّز أخاه المظلوم عليه ، وربما تمنى أنْ يكونَ هو المظلوم لا الظالم .

كذلك حال المخبت يرى أن الخَلْق جميعاً عيال الله ، وأن أحبَّهم إليه أرأفهم بعياله ؛ لذلك يعفو عَمَّن ظلمَه ، ويترك أمره لله رب الجميع ، كما أن المظلوم إذا رَدَّ الظلم فإنه يَردُّه بقوته ومقدرته هو ، إنما إنْ ترك الردَّ لله جاء الردُّ على مقدار قوته سبحانه .

ملْحظ آخر ينبغي أن يتنبه له المظلوم قبل أن يُفكِّر في الانتقام ، وهو : مَنْ يدريك لعلك ظلمتَ أنت أيضاً دون أنْ تدري ، لعل للناس عندك مظالم لا تشعر بها ، وليست في حُسْبانك ، فالمسألة - إذن - لك وعليك .

لذلك يقول الحق سبحانه في الحديث القدسي : « يا ابن آدم دعوتَ على مَنْ ظلمك » .

وهذا مباح لك بقوله تعالى : ﴿لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ

إلاَّ مَن ظُلِمَ .. ﴿١٤٨﴾ [النساء] يعني : أعطيناك فرصة أنْ تدعو على من ظلمك .

ثم يقول سبحانه : « ودعا عليك مَنْ ظلمتَه ، فإنْ شئتَ أجبناك وأجبنا عليك ، وإنْ شئت أخَّرتكُما للآخرة فيسعكُما عَفْوى »(١) .

فالمخبت يستحضر هذا كله ، ويركن إلى العفو والتسامح ؛ ليأخذ ربَّه عز وجل في صفه ؛ لذلك يقولون : لو علم الظالم ما أعدَّه الله للمظلوم من الكرامة لضَنَّ عليه بالظلم .

فحين ترى المظلوم يعفو عنك ويتسامح معك ، فلا تظن أنك أخضعته لك ، إنما هو خضع لله الذى سيرفعه عليك ، ويُعْلى رأسه عليك في يوم من الأيام .

لذلك من أنماط السلوك السوى إذا تشاجر اثنان يقول أحد العقلاء : لكما أب نرد عليه ، أو لكما كبير نرجع إليه في هذه الخصومة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

يُبيِّن لنا الحق سبحانه بعض صفات المخبتين ، فهم ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ .. ﴿٣٥﴾ ﴾ [الحج] (وَجِلت) : يعنى خافت ، واضطربت ، وارتعدت لذكر الله تعظيماً له ، ومهابة منه .

(١) ذكره أبو حامد الغزالى (٣/١٨٣) من قول يزيد بن ميسرة : إن ظللت تدعو على من ظلمك فإن الله تعالى يقول : إن آخر يدعو عليك بأنك ظلمته ، فإن شئت استجبنا لك وأجبنا عليك ، وإن شئت أخرتكما إلى يوم القيامة فيسعكما عفوى .

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨)﴾ [الرعد]

فمرة يقول ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ .. (٣٥)﴾ [الحج] ومرة ﴿تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨)﴾ [الرعد] ، لماذا ؟ لأن ذكر الله إنْ جاء بعد المخالفة لا بُدَّ للنفس أنْ تخاف وتَوْجَل وتضطرب هيبةً لله عز وجل ، أما إنْ جاء ذِكْر الله بعد المصيبة أو الشدة فإن النفس تطمئنُّ به ، وتأنَسُ لما فيها من رصيد إيمانى ترجع إليه عند الشدة وتركَنُ إليه عند الضيق والبلاء ، فإنْ تعرَّضتَ لمصيبة وعزَّتْ أسبابُ دَفْعها عليك تقول : أنا لى رب فتلجأ إليه ، كما كان من موسى - عليه السلام - حين قال : ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢)﴾ [الشعراء]

﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ .. (٣٥)﴾ [الحج] ومعنى أصاب : يعنى جاء بأمر سيء فى عُرْفك أنت ، فتعده مصيبة ؛ لأننا نُقدِّر المصيبة حَسْب سطحية العمل الإيذائى ، إنما لو أخذتَ مع المصيبة فى حسابك الأجر عليها لهانَتْ عليك وما اعتبرتَها كذلك ؛ لذلك فى الحديث الشريف يقول ﷺ : « المصاب من حرم الثواب » .

هذا هو المصاب حقاً الذى لا تُجبَر مصيبته ، أما أنْ تُصاب بشيء فتصبر عليه حتى تنالَ الأجر فليس فى هذا مصيبة .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ .. (٣٥)﴾ [الحج] لأن الصلاة هى الولاء الدائم للعبد المسلم ، والفرض الذى لا يسقط عنه بحال من الأحوال ، فالشهادتان يكفى أنْ تقولها فى العمر مرة ، والزكاة إنْ كان عندك نصَاب فهى مرة واحدة فى العام كله ، والصيام كذلك ، شهر فى العام ، والحج إنْ كنتَ مستطيعاً فهو مرة واحدة فى

العمر ، وإنْ لم تكُنْ مستطيعاً فليس عليك حج .

إذن : الصلاة هى الولاء المستمر للحق سبحانه على مَدار اليوم كله ، وربك هو الذى يدعوك إليها ، ثم لك أنْ تُحدِّد أنت موعد ومكان هذا اللقاء فى حَضْرته تعالى ؛ لأنه سبحانه مستعد لـلقائك فى أىِّ وقت .

وتصور أن رئيس الجمهورية أو الملك مثلاً يدعوك ويُحتِّم عليك أنْ يراك فى اليوم خمس مرات لتكون فى حضرته ، والحق سبحانه حين يدعو عباده للقائه ، لا يدعوهم مرة واحدة إنما خمس مرات فى اليوم والليلة ؛ لأنه سبحانه لا يتكلف فى هذه العملية تكرار لقاءات ، فهو سبحانه يَلْقَى الجميع فى وقت واحد .

ولما سئل الإمام على ـ رضى الله عنه ـ : كيف يُحاسب اللهُ كلَّ هؤلاء الناس فى وقت واحد ؟ قال : كما أنه يرزقهم جميعاً فى وقت واحد .

وقوله تعالى : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٥) ﴾ [الحج] لا ينفقون من جيوبهم ، إنما من عطاء الله ورزقه . ومن العجيب أن الله تعالى يعطيك ويهبُكَ ويُغْدق عليك تفضُّلاً منه سبحانه ، فإذا أرادك تُعين محتاجاً قال لك : ﴿ مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً .. (١١) ﴾ [الحديد]

وكأن الله تعالى يقول لنا : أنا لا أعود فى هبتى ولا فى عطائى ، فأقول : اعْطِ ما أخذتَه لفلان ، بل إنْ أعطيتَ الفقير من مالك فهو أيضاً لك مُدَّخر لا يضيع ، فرِزْقك الذى وهبك الله إياه ملْكك ، ولا نغبنك فى شىء منه أبداً ، فربُّك يحترم ملكيتك ، ويحترم جزاء عملك وجدِّك واجتهادك .

نقول ـ ولله المثل الأعلى ـ : كالرجل الذى يحتاج مبلغاً كبيراً لأحد الأبناء فيأخذ من الباقين ما معهم وما ادخروه من مصروفاتهم على وَعْد أنْ يُعوِّضهم بدلاً منها فيما بعد .

لذلك يقول بعدها : ﴿ فَيُضَاعِفَهُ لَهُ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الحديد] فيعاملك ربك بالزيادة ؛ لذلك يقول البعض : إن الله تعالى حرَّم علينا الربا وهو يعاملنا به ، نعم يعاملك ربك بالربا ويقول لك : اترك لى أنا هذا التعامل ؛ لأننى حين أزيدك لا أنقص الآخرين ، ولا أنقص مما عندى ، ولا أرهق ضعيفاً ولا محتاجاً ولا أستغلّ حاجته .

والصدقة فى الإسلام تأمينٌ لصاحبها ضد الفقر إن احتاج ، فأخوفُ ما يخافه المرءُ الحاجة عند الكِبَر ، وعدم القدرة على الكَسْب ، وعند الإعاقة عن العمل ، يخاف أنْ ينفدَ ماله ، ويحتاج إلى الناس حال كِبَره .

وعندها يقول له ربه : اطمئن ، فكما أعطيْتَ حال يُسْرك سيعطيك غيرُك حال عَوَزك وحاجتك .

إذن : أخذ منك ليعطيك ، وليُؤمِّن لك مستقبل حياتك الذى تخاف منه .

الصدقة فى الإسلام صندوق لتكافل المجتمع ، كصندوق التأمين فى شركات التأمين ، فإذا ما ضاقت بك أسباب الرزق وشكوْتَ الكِبَر والعجز نقول لك : لا تحزن فأنت فى مجتمع مؤمن متكافل ، وكما طلبنا منك أنْ تعطى وأنت واجد طلبنا من غيرك أنْ يعطيك وأنت مُعْدم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ(١) فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ(٢) كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦) ﴾

بعد أن تكلم الحق سبحانه وتعالى فى النفقة مِمَّا رزقكم الله تكلّم فى النفقة فى البُدْن ، والبُدْن : جمع بَدَنة ، وهى الجمل أو الناقة ، أو ما يساويهما من البقر ، وسمَّاها بَدَنة إشارة إلى ضرورة أنْ تكون بدينة سمينة وافرة ، ولا بُدَّ أنْ تراعى فيها هذه الصفة عند اختيارك للهَدْى الذى ستُقدمه لله ، واحذر أن تكون من أولئك الذين يجعلون لله ما يكرهون ، إنما كُنْ من الذين قال الله لهم : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أنفقوا من طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ .. (٢٦٧) ﴾ [البقرة]

وقوله تعالى : ﴿ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ .. (٣٦) ﴾ [الحج] أى : اذكروا الله بالشكر على أنْ وهبها وذلّلها لكم ، واذكروا اسم الله عليها حين ذَبْحها .

(١) ورد فى هذه الكلمة عدة قراءات منها :
- صَوَافَّ : أى : قياماً على ثلاث قوائم معقولة يدها اليسرى . عن ابن عباس ومجاهد وعلى بن أبى طلحة ، وهى قراءة الجمهور .
- صَوَافِن : جمع صافنة ، وهى التى قد رفعت إحدى يديها بالعقل لئلا تضطرب عن ابن مسعود وابن عباس وابن عمر .
- صَوَافِىَ : أى : خوالص لله عز وجل ، لا يشركون به فى التسمية على نحرها أحداً . عن الحسن والأعرج ومجاهد وزيد بن أسلم وأبى موسى الأشعرى .
- صَوَافٍ : وهى بمعنى التى قبلها . عن الحسن البصرى . [تفسير القرطبى ٦/٤٥٩٣]

(٢) قال ابن الأثير : القانع فى الأصل السائل . وقال الحسن البصرى فيما رواه عنه ابن أبى شيبة وعبد بن حميد : القانع الذى يقنع إليك بما فى يديك . والمعتر الذى يتصدى إليك لتطعمه . ولفظ ابن أبى شيبة : والمعتر الذى يعتريك ، يُريك نفسه ولا يسألك . [الدر المنثور للسيوطى ٦/٥٥] .

ومعنى ﴿ صَوَافَّ .. (٣٦) ﴾ [الحج] يعنى : واقفة قائمة على أرْجُلها ، لا ضعفَ فيها ولا هُزَال ، مصفوفة وكأنها فى معرض أمامك . وهذه صفات البُدْن الجيدة التى تناسب هذه الشعيرة وتليق أنْ تُقدَّمْ هَدْياً لبيت الله .

ومعنى : ﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا .. (٣٦) ﴾ [الحج] وجبَ الشىء وجباً يعنى : سقط سقوطاً قوياً على الأرض ، ومعلوم أن البَدَنة لا تُذبح وهى مُلْقاة على الأرض مثل باقى الأنعام ، وإنما تُنْحر وهى واقفة ، فإذا ما نُحرَتْ وقعتْ على الأرض وارتمتْ بقوة من بدانتها .

﴿ فَكُلُوا مِنْهَا .. (٣٦) ﴾ [الحج] وقلنا : إن الأكل لا يكون إلا من الهَدْى المحض والتطوع الخالص الذى لا يرتبط بشىء من مسائل الحج ، فلا يكون هَدْىَ تمتُّع أو قِرَان ، ولا يكون جَبْراً لمخالفة ، ولا يكون نَذْراً .. إلخ .

وعلَّة الأمر بالأكل من الهَدْى ؛ لأنهم كانوا يتأففون أنْ يأكلوا من المذبوح للفقراء ، وكأن فى الأمر بالأكل منها إشارةً لوجوب اختيارها مما لا تعافه النفس .

ومعنى : ﴿ الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ .. (٣٦) ﴾ [الحج] القانع : الفقير الذى يتعفَّف أنْ يسأل الناس ، والمعترّ : الفقير الذى يتعرَّض للسؤال .

ثم يقول سبحانه : ﴿ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦) ﴾ [الحج] يعنى : سخَّرناها لكم ، ولو فى غير هذا الموقف ، لقد سخَّرها الله لكم منذ وُجِد الإنسان ؛ لذلك عليكم أنْ تشكروا الله على أنْ أوجدها وملَّككم إياها ، وتشكروه على أنْ سخَّرها وذلَّلها لكم ، وتشكروه على أنْ هداكم للقيام بهذا المنسك ، وأداء هذه الشعيرة وعمل هذا الخير الذى سيعود عليكم بالنفع فى الدنيا وفى الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (٣٧) ﴾

ذلك لأنهم كانوا قبل الإسلام حين يذبحون للأوثان يُلطِّخون الصنم بدماء الذبيحة(١) ، كأنهم يقولون له : لقد ذبحنا لك ، وها هي دماء الذبيحة ، وفي هذا العمل منهم دليل على غبائهم وحُمْق تصرفهم ، فهم يروْن أنهم إذا لم يُلطِّخوه بالدم ما عرف أنهم ذبحوا من أجله .

وهنا ينبه الحق - سبحانه وتعالى - إلى هذه المسألة : ﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا .. (٣٧) ﴾ [الحج] يعني : لا يأخذ منها شيئاً ، وهو سبحانه قادر أنْ يعطي الفقير الذي أمرك أنْ تعطيه ، ويجعله مثلك تماماً غير محتاج .

إنما أراد سبحانه من تباين الناس في مسألة الفقر والغنى أن يُحدث توازناً في المجتمع ، فالمجتمع ليس آلة ميكانيكية تسير على وتيرة واحدة ، إنما هي حياة بشر لا بُدَّ أنْ تقومَ على الحاجة وعلى التكامل ، فلا بُدَّ من هذه التفاوتات بين الناس ، ثم تتدخّل الشرائع السماوية فتأخذ من القوي وتعطي الضعيف ، وتأخذ من الغني وتعطي

---

(١) قال ابن عباس : كان أهل الجاهلية يُضرِّجون البيت بدماء البُدْن ، فأراد المسلمون أن يفعلوا ذلك ، فنزلت الآية . [تفسير القرطبي ٦/٤٥٩٦] وذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/٥٦) من قول ابن عباس أيضاً وعزاه لابن المنذر وابن مردويه .

الفقير .. وساعتها ، نقضى على مشاعر الحقد والحسد والبغضاء والأثرة .

فحين يعطى القوىُّ الضعيفَ من قوّته لا يحسده عليها ، ويتمنى له دوامها ؛ لأن خيرها يعود عليه ، وحين يعطى الغنىّ مما أفاض الله عليه للفقير يُؤلِّف قلبه ، ويجتثّ منه الغِلّ والحسد ، ويدعو له بدوام النعمة .

لا بد من هذا التفاوت ليتحقق فينا قول الرسول ﷺ : « المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص ، يشدُّ بعضه بعضاً »[1] .

لذلك ، ترى صاحب النعمة الذى ينثر منها على غيره ، إنْ أصابته فى ماله مصيبة يحزن له الآخرون ويتألمون بألمه ؛ لأن نعمته تفيض عليهم ، وخيرُه ينالهم . وأهل الريف إلى عهد قريب كان الواحد منهم يُربِّى البقرة أو الجاموسة ؛ ليحلب لبنها ، وكان لا ينسى الجيران وأهل الحاجة ، فكانوا يدعُونَ الله له أنْ يبارك له فى ماله ، وإنْ أصابته ضرَّاء فى ماله حَزنوا من أجله .

إذن : حين تفيض من نعمة الله عليك على مَنْ حُرِم منها تدفع عن نفسك الكثير من الحقد والحسد ، فإنْ لم تفعل فلا أقلَّ من إخفاء هذا الخير عن أعيُن المحتاجين حتى لا تثير حفائظهم ، وربما لو رآك الرجل العاقل يُردعه إيمانه فلا تمتدّ عيناه إلى ما فى يدك ، إنما حين يراك الأطفال الصغار تحمل ما حُرِموا منه ، أو رأوا ولدك يأكل وهم محرومون هنا تكون المشكلة وقوله تعالى :

﴿ وَلَـٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [الحج]

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٤٦) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٥٨٥) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه .

واتقاء الله هو اتباع منهجه ، فيُطاع الله باتباع المنهج فلا يُعصى ، ويُذكر فلا يُنسى ، ويُشكر فلا يُكفر ، وطريق الطاعة يوجد فى اتباع المنهج بـ « افعل » و « لا تفعل » ، ويُذكر فلا ينسى ؛ لأن العبد قد يطيع الله ويُنفّذ منهج الله ، ولكن النعم التى خلقها الله قد تشغل العبد عن الله ، والمنهج يدعوك أنْ تتذكر فى كل نعمة مَنْ أنعم بها ، وإياك أنْ تُنسيك النعمةُ المنعمَ .

ثم يقول تبارك وتعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الحج]

تلحظ هنا مسألة المتشابهات فى القرآن الكريم ، ففى الآية السابقة ذَيَّلها الحق سبحانه بقوله : ﴿ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الحج]

هذه المتشابهات يقف عندها العلماء الذين يبحثون فى القرآن ويُقلِّبون فى آياته ؛ لذلك يجمعون مثل هذه الآيات المتشابهة التى تتحدث فى موضوع واحد ويُرتِّبونها فى الذِّهْن ؛ لذلك لا يُؤتمنون على الحفْظ ، ومن هنا قالوا : ينبغى لمَنْ أراد حفْظ القرآن أنْ يدعَ مسألة العلم جانباً أثناء حفْظه ، حتى إذا نسى كلمةً وقف مكانه لا يتزحزح إلى أنْ يعرفها ، أمّا العالم فربما وضع مرادفها مكانها ، واستقام له المعنى .

والمراد بقوله تعالى : ﴿ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [الحج] يعنى : تذكرونه وتشكرونه على ما وفّقكم إليه من هذه الطاعات ﴿ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الحج] بشِّر يعنى : أخْبِرْ بشىء سَارٍّ قبل مَجِىء زمنه ، ليستعد له المبشَّر ويفرح به ، كذلك الإنذار : أن تخبر بشىء سىء قبل حلوله أيضاً ؛ ليستعد له المنذر ، ويجد الفرصة التى

يتلافى فيها خطاه ، ويُجنِّب نفسه ما يُنذَر به ، ويُقبل على ما يُنجيه .

و ﴿الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الحج] : جمع مُحسِن ، والإحسان : أعلى مراتب الإيمان ، وهو أنْ تُلزِم نفسك بشيء من طاعة الله التى فرضها عليك فوق ما فرض ، فربُّك عز وجل فرض عليك خمس صلوات فى اليوم والليلة ، وفى إمكانك أنْ تزيد من هذه الصلوات ما تشاء ، لكن من جنس ما فرض الله عليك ، لا تخترع أنت عبادة من عندك ، كذلك الأمر فى الصوم ، وفى الزكاة ، وفى الحج ، وفى سائر الطاعات التى ألزمك الله بها ، فإنْ فعلت هذا فقد دخلتَ فى مقام الإحسان .

وفى الإحسان أمران : مُحسن به وهو العبادة أو الطاعة التى تُلزِم نفسك بها فوق ما فرض الله عليك ، ودافعٌ عليه ، وهو أن تؤدى العمل كأن الله يرقبك ، كما جاء فى حديث جبريل : « والإحسان أنْ تعبدَ الله كأنك تراه ، فإنْ لم تكُنْ تراه فإنه يراك »[1] .

فمراقبتك له ومراعاتك لنظره تعالى إليك ، يدفعك إلى هذا الإحسان ، ألاَ ترى العامل الذى تباشره وتُشرف عليه ، وكيف يُنهى العمل فى موعده ؟ وكيف يُجيده ؟ على خلاف لو تركتَه وانصرفْتَ عنه .

فإنْ لم تَصل إلى هذه المرتبة التى كأنك ترى الله فيها ، فلا أقلَّ من أنْ تتذكر نظره هو إليك ، ومراقبته سبحانه لحركاتك وسكناتك .

لذلك ، فى سورة الذاريات : ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الذاريات]

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٨) كتاب الإيمان من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه .